مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : ...-..... Issn : 2353-043X
المجلد 07/ العـدد 01: (2020)، ص: 09- 29

"هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره.

- من سورة طَه إلى سورة النُّور. أنموذجا-

The "Ha" of the Absent Pronoun and its Impact on Directing the Meaning: Tabari Exegesis from Sura Taha to Sura Noor. As a model--

الدكتور: جمال بوكو.
جامعة الجزائر1.كلية العلوم الإسلامية الخروبة- الجزائر.

ملخص البحث:

إن الاعتناء بالتفسير اللغوي من أهم المهمات التي ينبغي أن تعنى بها الدراسات القرآنية، والضمائر في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، فهذا ضمير غائب وذاك ضمير منفصل، وغيرها من مسائل الضمير.

لذا كانت دراسةُ بحثِنا هذا، إلقاء نظرةٍ حول الضمير الغائب وبالأخص "هاء الغائب"، ومدى تأثيرها في معاني القرآن الكريم، معتمِدا على "جامع البيان في تأويل القرآن"، لإمام المفسِّرين ابن جرير الطبري، وكيف كان توجيهه -رحمه الله- لمعاني عود الضمير في "هاء" الغائب، مع ذكر أقوال أهل التفسير كالفرّاء، وابن عطية، وغيرهما من العلماء، ثم ذكرتُ ما ترجَّح عندي في كلِّ مسألة مِن مسائل عود الضمير، وأثره في توجيه معاني القرآن الكريم، لنماذج مختارة مِن سورة طه إلى سورة النور، مع الوقوف على ترجمة مختصرة حول المؤلِّف وكتابه "جامع البيان في تأويل القرآن".

Research Summary:

Interest in linguistic exegesis should be among the priorities of Qur'anic Studies. There is a multitude of pronouns in the Qura'n such as the absent pronoun (damir al gha'ib) and the detached

pronoun (damir munfasil) and other issues on the subject of pronouns.
The ourpose if the present research is to throw light on the 'absent pronoun (damir al gha'ib) notably the "ha" of the absent pronoun and its impact on the meanings of the Qur'an. The research relies on Tabari' s JAMI'E AL BAYAN FI TA'WEEL AL QUR'AN and how was his direction on the "ha" of the absent pronoun, by referring to the sayings of exegestes like 'Al-Farra', 'Ibn Atiya' and other scholars, and ending by outweighting
each issue on the "awd of pronoun" and its impact on guiding and directing the meanings of the noble Qur'an with reference from Sura Taha to Sura Noor with a brief biography on the author and his book entitled: Jami'e Al Bayan Fi Ta'weel Al Quran.

المؤلف المرسل: جمال بوكو

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، أحمده سبحانه على نعمه الغزار، وأشهد أنه لا إله إلا هو، له الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله وصفيه من خلقه، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد اعتنى المفسِّرون بالمسائل اللغوية في تفاسيرهم، وبيّنوا أسرار اللغة العربية في كلام رب العالمين، وكيف لا وبها أُنزِل قال جلّ جلاله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف، الآية:2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [سورة الرعد، الآية:37]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [سورة طه،

الآية:113]، وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية:28].

لقد اعتنى الطبري رحمه الله في تفسيره بالمسائل المتعلقة بعود الضمير، لذا جاء بحثنا[1] هذا في إبراز ما رجَّحه الإمام الطبري -رحمه الله- في عائد الضمير، وأثر ذلك في توجيه معاني القرآن الكريم، وذلك مِن خلال نماذج مختارة مِن سورة طَه إلى سورة النُّور، محاوِلا جمع ما كان مفرَّقًا في ثنايا هذا التفسير القيِّم، ولم أقف- بحسب اطلاعي المحدود- مَن تَطرّقَ إلى هذا الموضوع بِبحثٍ مُستَقِلٍ، والله أعلم.

فانتظم البحث على تمهيد، ومطلبين وخاتمة، ففي التمهيد تناولتُ معنى الضمير، أما في المطلب الأول ذكرت ترجمة مختصرة للإمام الطبري وبيان القيمة العلمية لتفسيره، وأما المطلب الثاني فقد خصصته للجانب التطبيقي للدراسة، وأخيرا الخاتمة وفيها أهم النتائج المتوصل إليها.

إذن كيف تعامل الإمام الطبري -رحمه الله- مع عائد الضمير في تحديد معاني القرآن الكريم؟، وما توجيهه في ذلك؟، وهل كان لهذا التوجيه أثرٌ في معاني القرآن الكريم؟.

[1] لقد نشرتُ مقالين في هذا الموضوع، **المقال الأولى**: صدر من طرف مجلة [المجمع الجزائري للغة العربية] العدد29، السنة السادسة عشرة، شوال 1440هـ- الموافق جوان 2019م.بعنوان: عود الضمير: هاء الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره. -أواخِر سورة البقرة نموذجا [من الآية 170 إلى الآية 280]-

والمقال الثاني: سيصدر قريبا في نفس المجلة [المجمع الجزائري للغة العربية] بعنوان: عود الضمير: هاء الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره. -سورة ءال عمران، والنساء، والمائدة. أنموذجا-.

تمهيد:

تعريف الضمير لغة، واصطلاحا:

أ- لغة: الضَّميرُ: هو الشيءُ الذي تُضمِرُه وتخفيه في قلبِكَ، كأن تقول: « أضْمَرْتُ صَرفَ الحَرْفِ، إذا كان متحركا فأسْكَنْتُه»[2]. وقد يطلق ويراد به الضعف و الهزال تقول: «وتضَمَّرَ وجهُه أي: انضَمَّت جلدته من الهُزال»[3].

ب- اصطلاحا: عرف الجرجاني المضمر فقال: « ما وضع لمتكلم، أو مخاطب، أو غائب تقدّم ذِكره، لفظًا، نحو: زيدٌ ضربتُ غلامه. أو **معنًى**، بأن ذكر مشتقه، كقوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، أي: العدل أقرب لدلالة اعدلوا عليه. أو **حكمًا**، أي: ثابتًا في الذهن، كما في ضمير الشأن، نحو: هو زيدٌ قائمٌ»[4].

المطلب الأول: ترجمة مختصرة عن حياة الإمام ابن جرير الطبري، و بيان القيمة العلمية لتفسيره "جامع البيان في تأويل القرآن":

الفرع الأول: التعريف بالإمام ابن جرير الطبري:

أولا- اسمه ولقبه: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري[5].

ثانيا- كنيته: أبو جعفر ولم يكن متزوجا فقد كان حصورا صالحا[6].

ثالثا- مولده: ولد في سنة 225هـ، وقيل: "أربع وعشرين ومائة من الهجرة" 224هـ[7]، وكان مولده بآمُل[8] طَبَرِسْتَان.

---

[2] خليل بن أحمد، العين، تحقيق: د .مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج41/7.

[3] المصدر نفسه، ج42/7.

[4] الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م، ص217.

[5] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م، ج548/2.

وهنا ينبغي أن نفرق بين محمد بن جرير **بن يزيد** الطبري المفسِّر، وبين محمد بن جرير **بن رستم** الطبري الرَّافضي، وإنما يفترقان في اسم الجد. ينظر: ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الاسلامية، الطبعة الأولى، 2002م، ج30/7.

[6] ينظر: ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج25/7.

رابعا- خِلْقته: كان أسمر إلى الأدمة، نحيف الجسم، طويل القامة[9].

خامسا- مؤلفاته: للإمام الطبري مؤلفات كثيرة منها[10]:

-تاريخ الأمم والملوك.

-كتاب في التفسير المسمى: **"جامع البيان في تأويل القرآن".**

-وكتاب سماه "تهذيب الآثار".

-اختلاف الفقهاء.

سادسا- وفاته: «تُوُفِّيَ ابنُ جَرِيرٍ عَشِيَّة الأَحَدِ لِيَومَيْنِ بَقِيَا مِن شَوَّال سَنَةَ عَشْرٍ وَثَلاَثِ مائَةٍ[310هـ]، وَدُفِنَ فِي دَارِهِ بِرَحْبَةِ يَعْقُوْب [يَعْنِي: بِبَغْدَادَ]»[11].

سابعا- ثناؤ العلماء عليه: أثنى عليه الخطيب البغدادي ثناءً عطرا فقال: «وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات بصيرا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفا بأيام الناس وأخبارهم»[12].

وقال الذهبي عنه: « وَكَانَ مِن أَفرَاد الدَّهر عِلماً، وَذكَاءً، وَكَثْرَةَ تَصَانِيف قلَّ أَن تَرَى العُيُونُ مثلَه»[13].

---

[7] شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1985م، ج276/14.

[8] هي أكبر مدينة بطبرستان في السهل، فطبرستان سهل وجبل، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م، ج57/1.

[9] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج548/2.

[10] المصدر نفسه، ج548/2.

[11] شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج282/14.

[12] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج548/2.

[13] شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج267/14.

الفرع الثاني: القيمة العلمية لكتاب "جامع البيان في تأويل القرآن".

لقد اختصر ابن جرير الطبري تفسيره "جامع البيان في تأويل القرآن"، من ثلاثين ألف ورقة إلى ثلاثة آلاف ورقة، وذلك «أنَّ أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قَالَ: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحوا مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله ماتت الهمم»[14].

أثنى العلماء على تفسير ابن جرير الطبري فهذا ابن تيمية يقول: « وَأَمَّا التَّفَاسِيرُ الَّتِي فِي أَيدِي النَّاسِ فَأَصَحُّهَا "تَفسِيرُ مُحَمدِ بنِ جَرِير الطبري" فَإِنَّهُ يَذكُر مَقالَاتِ السَّلَف بِالأَسَانِيد الثَّابِتة وَلَيسَ فِيهِ بِدعَةٌ وَلَا يَنقُل عَن المُتَّهَمِين»[15].

يُلاحظ في تفسير ابن جرير الطبري رحمه الله أنه يذكر في تفسيره مصطلح "الكناية" بدل "الضمير" فهو شيء واحد عنده رحمه الله، غير أن الكوفيين من النحاة يسمونه الكناية، وأما البصريون من النحاة يسمونه الضمير[16]، ومثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى:﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية:45].

فقال رحمه الله: « ﴿**وإنها**﴾ وإن الصلاة، ف**"الهاء والألف"** في ﴿**وإنها**﴾ عائدتان على "الصلاة". وقد قال بعضهم: إن قوله: ﴿**وإنها**﴾ بمعنى: إن إجابة محمد صلى

---

[14] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج548/2.

[15] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1995م، ج385/13.

[16] للاستزادة يراجع: جلال الدين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، ج223/1 .

الله عليه وسلم، ولم يجر لذلك بلفظ الإجابة ذكر فتجعل **"الهاء والألف" كناية عنه**، وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لا دلالة على صحته»[17].

المطالب الثاني: نماذج مختارة لـ هاء الضمير الغائب من سورة طَه إلى سورة النُّور:

1/ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16)﴾ [سورة طه، الآية: 13، 14، 15، 16].

الشاهد: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾

يرى الطبري أن ضمير **"الهاء"** في ﴿عَنْهَا﴾ تعود إلى الساعة وردّ مَن أعادها إلى الإيمان لأنه لم يجر له ذكره في السياق فقال رحمه الله: «وكان بعضهم يزعم أن **"الهاء والألف"** من قوله ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ كناية عن ذكر الإيمان، قال: وإنما قيل عنها وهي كناية عن الإيمان كما قيل ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يذهب إلى الفَعْلة، ولم يجر للإيمان ذكر في هذا الموضع، فيجعل ذلك من ذكره، وإنما جرى ذكر الساعة، فهو بأن يكون من ذكرها أولى».[18]

أما الإمام النَّحاس يرى عود ضمير **"الهاء"** في ﴿عَنْهَا﴾ إلى الإيمان فقال رحمه الله: «﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: عن الإيمان بها، وبما فيها،﴿ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ أي: في الكفر بها»[19].

---

[17] أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية، ج15/1.

[18] المصدر نفسه، ج291/18- 292.

[19] أبو جعفر النحاس، إعراب القرآن، تعليق: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ، ج25/3.

يرى الزمخشري عود ضمير ﴿عَنْهَا﴾ إلى القيامة وأجاز عوده إلى الصلاة فقال: «﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى﴾ أي: لا يصدنك عن تصديقها والضمير للقيامة، ويجوز أن يكون للصلاة»[20].

أما ابن عطية فرجَّح عود الضمير ﴿عَنْهَا﴾ إلى الإيمان بالساعة فيكون المعنى فلا يصدنك عن الإيمان بالساعة، وأجاز عوده إلى الصلاة فقال: «والضمير في قوله ﴿عَنْهَا﴾ يريد عن الإيمان بالساعة فأوقع الضمير عليها، ويحتمل أن يعود على الصَّلاةَ»[21].

ذكر الإمام السَّمين الحلبي احتمال عود ضمير ﴿عَنْهَا﴾ إلى الساعة أو الصلاة فقال: «والضميران في ﴿عَنْهَا﴾ و ﴿بها﴾ للساعة. وقيل: للصلاة. وقيل في ﴿عَنْهَا﴾ للصلاة، وفي ﴿بها﴾ للساعة»[22].

بعد ذكر أقوال أهل العلم في تحديد عود الضمير ﴿عَنْهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾[سورة طه، الآية: 14، 15] يظهر لي –والله أعلم- أنّ الضمير ﴿عَنْهَا﴾ يعود إلى الإيمان بالساعة وهو ما رجَّحه ابن عطية -رحمه الله-، لأنَّ لفظة الساعة أقرب مذكورٍ، والعود إلى أقرب مذكور أولى من إعادته إلى غيره، مالم يدلّ دليل يصرفه إلى الأبعد.

2/ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية:31].

الشاهد: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾

---

[20] أبو القاسم محمود الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ، ج56/3.

[21] أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ ، ج40/4.

[22] أبو العباس شهاب الدين، المعروف بالسمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج23/8.

ذكر الطبري اختلاف العلماء في تحديد عود ضمير ﴿فِيهَا﴾ ثم رجَّح أنّ الضمير يعود إلى الأرض جمعا بين الأقوال لأنّ المعنى يحتويه فقال رحمه الله: «وإنما اخترنا القول الآخر في ذلك وجعلنا **"الهاء والألف"** من ذكر الأرض، لأنها إذا كانت من ذكرها داخل في ذلك السَّهل والجبل؛ وذلك أن ذلك كله من الأرض، وقد جعل الله لخلقه في ذلك كلّه فِجاجًا سبُلاً ولا دلالة تدلّ على أنه عنى بذلك فجاج بعض الأرض التي جعلها لهم سُبُلا دون بعض، فالعموم بها أولى»[23].

قال الإمام الرَّازي رحمه الله: «في قوله: ﴿فِيهَا﴾ **قولان**: **أحدهما** أنها عائدة إلى الجبال، أي وجعلنا في الجبال التي هي رواسي فجاجا سبلا، أي: طرقا واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجا وجعل فيها طرقا. **الثاني**: أنها عائدة إلى الأرض، أي وجعلنا في الأرض فجاجا وهي المسالك والطرق وهو قول الكلبي»[24].

أمّا أبوحيان ذكر احتمالين لعائد الضمير ﴿فِيهَا﴾ ورجَّح عوده إلى الأرض فقال رحمه الله: «والظاهر أن الضمير في ﴿فِيهَا﴾ عائد على الأرض. وقيل: يعود على الرَّواسي»[25].

من خلال ما سبق تبيَّن لي -والله أعلم- أنّ الضمير ﴿فِيهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [سورة الأنبياء، الآية:31]، يعود إلى الأرض وهو الذي رجّحه الإمام الطبري، لأن الأرض تحوي الجبال و السهول، كما أنّ السياق يقتضيه.

---

[23] تفسير الطبري، ج435/18.

[24] أبو عبد الله محمد بن عمر، الملقب بفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ، ج139/22.

[25] أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج426/7.

3/ قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُد بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[سورة الحج، الآية:15].

الشاهد: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾

ذكر الإمام الطبري اختلاف العلماء في تحديد عائد ضمير **"الهاء"** في **﴿يَنْصُرَهُ﴾** فقال: «اختلف أهل التأويل في المعنيّ **بالهاء** التي في قوله: ﴿أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾، فقال بعضهم: عُنِي بها نبيّ الله صلى الله عليه وسلم»[26].

ثم ذكر القول الثاني فقال رحمه الله: «وقال آخَرون: **"الهاء"** في **﴿يَنْصُرَهُ﴾** من ذكر **﴿مَنْ﴾**. وقالوا: معنى الكلام: من كان يظنّ أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب إلى سماء البيت ثم ليختنق، فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ، أنه لا يرزق»[27].

فرجَّح الإمام الطبري عود ضمير **"الهاء"** في **﴿يَنْصُرَهُ﴾** إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان لم يجر ذكره في الآيات، ولكن يقتضيه السياق فقال رحمه الله: «وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك قول من قال: **"الهاء"** من ذكر نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ودينه وذلك أن الله تعالى ذكره، ذكر قومًا يعبدونه على حرف وأنهم يطمئنون بالدين إن أصابوا خيرا في عبادتهم إياه، وأنهم يرتدّون عن دينهم لشدّة تصيبهم فيها، ثم أتبع ذلك هذه الآية، فمعلوم أنه إنما أتبعه إياها توبيخا لهم على ارتدادهم عن الدين، أو على شكهم فيه نفاقهم، استبطاء منهم السعة في العيش، أو السبوغ في الرزق. وإذا كان الواجب أن يكون ذلك عقيب الخبر عن نفاقهم، فمعنى الكلام إذن، إذ كان كذلك: من كان يحسب أن لن يرزق

[26] تفسير الطبري، ج18/579-580.

[27] المصدر نفسه، ج18/582.

الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته في الدنيا، فيوسع عليهم من فضله فيها، ويرزقهم في الآخرة من سَني عطاياه وكرامته...»[28].

وافقه ابن كثير رحمه الله في اختياره فقال: «أَوْلَى وَأَظْهَرُ فِي المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى من كان يظن أَنَّ اللَّهَ لَيسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ، فَلْيَذهَب فَلْيَقتُلْ نَفسَهُ إِن كَانَ ذَلِكَ غَائِظَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ لَا مَحَالَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَياةِ الدُّنيا وَيَومَ يَقُومُ الأَشْهادُ﴾ [سورة غافر، الآية: 51- 52] الآية، وَلِهَذَا قَالَ: فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذهِبَنَّ كَيدُه مَا يَغِيظُ»[29].

قال ابن الجوزي: «وفي **"هاء"** ﴿**ينصره**﴾ قولان: **أحدهما**: أنها ترجع على ﴿**مَنْ**﴾، والنصر: بمعنى الرزق... **والثاني**: أنها ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فالمعنى: من كان يظن أن لن ينصر اللهُ محمداً»[30].

ذكر الرازي في تفسيره قولين في المسألة فقال -رحمه الله-: « ﴿**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدنيا والآخرة**﴾ **"فالهاء"** إلى ماذا يرجِع؟ فيه وجهان: **الأول**: وهو قول ابن عباس ... واختيار "الفراء"[31] و"الزَّجاج" أنه يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن من ظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يجر له ذكر في الآية ففيها ما يدل عليه وهو

---

[28] تفسير الطبري، ج583/18.

[29] أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420هـ - 1999م، ج353/5.

[30] أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ، ج226/3- 227.

[31] أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة الأولى، ج218/2.

ذكر الإيمان في قوله: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا﴾ والإيمان لا يتم إلا بالله ورسوله»[32].

وذكر القول الثاني فقال: « أنّ **"الهاء"** في قوله: ﴿**لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ**﴾ راجع إلى ﴿**مَنْ**﴾ في أول الآية لأنه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع إلى مذكور إذا أمكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق»[33].

أمّا أبوحيان فرجّح عود الضمير إلى ﴿**مَنْ**﴾ التي في قوله تعالى: ﴿**من كان يظن**﴾ لأنه هو المذكور في السياق فقال رحمه الله: «والظاهر أن الضمير في ﴿**يَنْصُرَهُ**﴾ عائد على ﴿**مَنْ**﴾ لأنه المذكور، وحق الضمير أن يعود على المذكور»[34].

بعد ذكر أقوال أهل العلم في عود ضمير **"الهاء"** في ﴿**يَنْصُرَهُ**﴾ يظهر لي -والله أعلم- أنّ الضمير يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم وحتى وإن لم يجر له ذكرٌ ولكن السيَّاق يقتضيه.

4/ **قال الله تعالى:** ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)**﴾ [سورة الحج، الآية:53- 54- 55].

الشاهد: ﴿**فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ**﴾

ذكر الإمام الطبري خلاف العلماء في تحديد عائد ضمير **"الهاء"** في ﴿**مِنْهُ**﴾ ورجَّح عوده إلى القرآن فقال رحمه الله: «وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: هي كناية من ذكر القرآن الذي أحكم الله آياته وذلك أن ذلك من

[32] تفسير الرازي، ج210/23.

[33] المصدر نفسه، ج211/23.

[34] أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج492/7.

ذكر قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أقرب منه من ذكر قوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ و"الهاء" من قوله ﴿أنه﴾ من ذكر القرآن، فإلحاق "الهاء" في قوله: ﴿ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ "بالهاء" من قوله: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أولى مِن إلحاقها بـ﴿ما﴾ التي في قوله ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ مع بُعد ﴿ما﴾ بينهما»[35].

يرى الزمخشري أن ضمير ﴿مِنْهُ﴾ يحتمل عوده إلى القرآن أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: «الضمير ﴿فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ للقرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم»[36].

ذكر ابن الجوزي أربعة أقوال في عائد الضمير ولم يرجِّح فقال -رحمه الله-: «قوله تعالى: ﴿ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في شكٍّ، وفي "هاء" ﴿مِنْهُ﴾ أربعة أقوال: **أحدها**: أنها ترجع إِلى قوله: تلك الغرانيق العلى. **والثاني**: أنها ترجع إِلى سجوده في سورة النَّجم، والقولان عن سعيد بن جبير، فيكون المعنى: إِنهم يقولون: ما بالُه ذكر آلهتنا ثم رجَع عن ذكرها؟! **والثالث**: أنها ترجع إِلى القرآن، قاله ابن جريج. **والرابع**: أنها ترجع إِلى الدِّين، حكاه الثعلبي»[37].

قال أبوحيان رحمه الله: «والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ قيل: عائد على القرآن. وقيل: على الرسول. وقيل: ما ألقى الشيطان»[38].

من خلال ما سبق يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير **"الهاء"** في ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، لأنّه هو المُحدَّث عنه في السياق وهو أقرب مذكورٍ، و أمّا عوده

[35] تفسير الطبري، ج671/18.
[36] الزمخشري، الكشاف، ج166/3.
[37] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج246/3.
[38] أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج528/7.

إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فهو بعيد، لأنّ الأصل عود الضمير إلى المذكور أول من إعادته إلى مُقدَّرٍ.

5/ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة النور، الآية:35]

الشاهد: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾

ذكر الإمام الطبري أقوال أهل العلم في عود ضمير **"الهاء"** في **﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾** فقال رحمه الله: «وقد اختلف أهل التأويل في المعنى **"بالهاء"** في قوله: **﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾** علام هي عائدة، ومن ذكر ما هي؟ فقال بعضهم: هي مِن ذكر المؤمن. وقالوا: معنى الكلام: مثل نور المؤمن الذي في قلبه من الإيمان والقرآن مثل مشكاة[39]». قال أيضا: «وقال آخَرون: بل عُني بالنور: محمد صلى الله عليه وسلم، وقالوا: **"الهاء"** التي قوله: **﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾** عائدة على اسم الله.....وقال آخَرون: بل عني بذلك: هدي الله وبيانه، وهو القرآن، قالوا: و**"الهاء"** من ذكر الله. قالوا: ومعنى الكلام: الله هادي أهل السماوات والأرض بآياته المبيّنات، وهي النّور الذي استنار به السماوات والأرض مثل هداه وآياته التي هدى بها خلقه، ووعظهم بها في قلوب المؤمنين كمشكاة»[40].

ورجح عود ضمير **"الهاء"** إلى الله فقال رحمه الله: « وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به، فقال:

[39] تفسير الطبري، ج178/19.

[40] المصدر نفسه، ج179/19.

مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد، الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصدقوا بما فيه في قلوب المؤمنين مثل مشكاة»[41].

قال ابن الجوزي: « قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ في **"هاء"** الكناية أربعة أقوال: **أحدها**: أنها ترجع إلى الله عزّ وجلّ، قال ابن عباس: مَثَلُ هُدَاه في قلب المؤمن. **والثاني**: أنها ترجع إلى المؤمن، فتقديره: مثل نور المؤمن، قاله أبيّ بن كعب. وكان أُبيّ وابن مسعود يقرآن: "مثل نور المؤمنين" . **والثالث**: أنها ترجع إلى محمّد صلى الله عليه وسلّم، قاله كعب. **والرابع**: أنها ترجِع إلى القرآن، قاله سفيان»[42].

رجَّح أبوحيان عود ضمير **"الهاء"** ﴿**نُورِهِ**﴾ إلى الله «والظاهر أن الضمير في ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ عائد على الله تعالى»[43].

ووافقه السَّمين الحلبي واستبعد عوده إلى المؤمن فقال: «واختلفوا في الضمير في ﴿**نُورِهِ**﴾ فقيل: هو للهِ تعالى، وهو الأَولى، والمرادُ بالنّورِ على هذا: الآياتُ المبيناتُ المتقدمةُ، أو الإِيمان، وقيل: إنه عائدٌ على المؤمنين أو المُؤْمنِ أو مَنْ آمن به. وقد قرأ "أُبَيّ [بن كعب]" بهذه الألفاظِ كلِّها، وأعاد الضميرَ على ما قرأ به. وقيل: يعودُ على محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يتقدَّمْ لهذه الأشياءِ ذِكْرٌ، وأمَّا عَوْدُه على المؤمنين في قراءةِ "أُبَيّ"، ففيه إشكالٌ من حيث الإِفراد»[44].

يظهر لي -والله أعلم- أنّ ضمير **"الهاء"** في ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ يعود إلى الله تعالى، لأنه أقرب مذكورٍ، وأمّا عوده إلى المؤمنين أو إلى محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن فلا يقتضيه السياق لأنّه لم يجر لهؤلاء ذكرٌ.

---

[41] تفسير الطبري، ج184/19.

[42] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج295/3.

[43] أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج43/8.

[44] السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج404/8.

6/ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [سورة النور، الآية: 39].

الشاهد: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾

يرى الإمام الطبري أن ضمير **"الهاء"** في **﴿جَاءَهُ﴾** جاءه تعود إلى "السراب" الذي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ فقال رحمه الله:« **﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾** و**"الهاء"** من ذكر السراب، والمعنى: حتى إذا جاء الظمآنُ السرابَ ملتمِسا ماءً، يستغيث به من عطشه **﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾** يقول: لم يجد السراب شيئا، فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور، يحسبون أنها منجيتهم عند الله من عذابه، كما حسب الظمآنُ الذي رأى السرَّابَ فظنه مَاء يُرويه من ظمئه، حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعه عند الله، لم يجده ينفعه شيئا، لأنّه كان عمله على كفر بالله، ووجد الله، هذا الكافرُ عند هلاكه بالمرصاد، فوفَّاه يوم القيامة حساب أعماله التي عملها في الدنيا، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه عليه منه»[45].

ثم ذكر الطبري سبب ترجيحه فقال: « فإن قال قائل: وكيف قيل: **﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾** فإن لم يكن السراب شيئا، فعلام أدخلت **"الهاء"** في قوله: **﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾** قيل: إنه شيء يرى من بعيد كالضباب، الذي يرى كثيفا من بعيد، والهباء، فإذا قرب منه المرء، رقّ وصار كالهواء، وقد يحتمل أن يكون معناه: حتى إذا جاء موضع السراب؛ لم يجد السراب شيئا، فاكتفى بذكر السراب من ذكر موضعه»[46].

[45] تفسير الطبري، ج195/19.

[46] المصدر نفسه، ج195/19.

ورجَّح الإمام الفرّاء عود ضمير **"الهاء"** إلى السَّرَاب فقال: « وقوله ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَهُ**﴾ يعنى: السّراب»[47].

أما الإمام النَّحاس فيرى أن الضمير يعود إلى موضع السَّراب فقال : « ثم قال جل وعز ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أي: حتى إذا جاء إلى **الموضع الذي فيه السراب** لم يجده شيئا مما قدره ووجد أرضًا لا ماء فيها وفي الكلام حذف»[48].

يرى أبوحيان أن ضمير **"الهاء"** في ﴿**جَاءَهُ**﴾ يعود إلى **الظمآن** حتى تتصل الضمائر لشيء واحد فقال:« فالضمير في ﴿جَاءَهُ﴾ و ﴿لم يجده﴾ للظمآن... والذي يظهر لي أنه تعالى شبه أعمالهم في عدم انتفاعهم بها بسراب صفته كذا، وأن الضمائر فيما بعد الظمآن له، والمعنى في ووجد الله عنده أي ووجد مقدور الله عليه من هلاك بالظمأ عنده، أي: عند موضع السراب فوفَّاه ما كتب له من ذلك، وهو المحسوب له، والله معجل حسابه لا يؤخره عنه فيكون الكلام متناسقا آخِذا بعضه بعنق بعض، وذلك باتصال الضمائر لشيء واحد»[49].

من خلال ما سبق تبيَّن لي -والله أعلم- أنّ ضمير **"الهاء"** في ﴿**جَاءَهُ**﴾ يعود إلى السَّراب لأنّ هو المحدَّث عنه، ويجوز عوده إلى "الظمآن" حتى تتحد الضمائر لشيء واحدٍ.

7/ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النور، الآية:41].

الشاهد: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾

---

[47] الفراء، معاني القرآن، ج255/2.

[48] أبو جعفر النحاس، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة، الطبعة الأولى، 1409هـ، ج541/4.

[49] أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج52/8.

لقد ذكر الإمام الطبري ثلاثة أقوال لاحتمال عائد ضمير **"الهاء"** ﴿**صَلَاتَهُ**﴾ ﴿**وتَسْبِيحَهُ**﴾ فقال رحمه الله: «﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ لوجوه: **أحدها** أن تكون **"الهاء"** التي في قوله: ﴿صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ مِن ذكر ﴿كلّ﴾، فيكون تأويل الكلام: كلُّ مصلٍّ ومسبِّح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه، ويكون "الكلّ" حينئذ مرتفعا بالعائد من ذكره في قوله:﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ وهو **"الهاء"** التي في الصلاة. **والوجه الآخر**: أن تكون **"الهاء"** في الصلاة والتسبيح أيضا "للكُل"، ويكون الكل مرتفعا بالعائد من ذكره عليه في ﴿عَلِمَ﴾ ويكون ﴿عَلِمَ﴾ فِعلاً "لِلكلّ"، فيكون تأويل الكلام حينئذ: قد علم كلّ مصلّ ومسبّح منهم صلاةَ نفسِه وتسبيحه، الذي كُلِّفه وأُلْزمه. **والوجه الآخر**: أن تكون **"الهاء"** في الصلاة والتسبيح من ذكر الله، والعلم "لِلكُل"، فيكون تأويل الكلام حينئذ: قد علم كلّ مسبِّح ومصلّ صلاة الله التي كلَّفه إياها، وتسبيحه»[50].

ثم رجَّح القول الأول وهو عود ضمير **"الهاء"** في ﴿صَلَاتَهُ﴾ ﴿وتَسْبِيحَهُ﴾ إلى ﴿كلٌّ﴾ فيكون المعنى أن الله قد يعلم كلَّ ما يفعله مُصلّ و مُسبِّح فقال رحمه الله: « وأظهر هذه المعاني الثلاثة على هذا الكلام، المعنى الأوّل، وهو أن يكون المعنى: كلُّ مصلّ منهم ومسبّح قد علم الله صلاته وتسبيحه، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: والله ذو علم بما يفعل كلّ مصلّ ومسبِّح منهم، لا يخفى عليه شيء من أفعالهم، طاعتها ومعصيتها، محيط بذلك كلّه، وهو مجازيهم على ذلك كلّه»[51].

قال الإمام الرَّازي: «ما قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: **الأول**: المراد كل قد علم الله صلاته وتسبيحه قالوا ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ وهو اختيار جمهور المتكلِّمين **والثاني**: أن يعود

[50] تفسير الطبري، ج200/19.

[51] المصدر نفسه، ج200/19.

الضمير في الصلاة والتسبيح على لفظ ﴿كلٌّ﴾ أي :أنهم يعلمون ما يجب عليهم من الصلاة والتسبيح **والثالث**: أن تكون **"الهاء"** راجعة على ذكر الله يعني قد علم كلُّ مسبِّح وكلّ مصلٍّ صلاةَ الله التي كلفه إياها»[52].

ذكر السَّمين الحلبي ثلاثة أقوال في المسألة ورجَّح عود ضمير **"الهاء"** في ﴿عَلم﴾ ﴿صَلَاتَهُ﴾ ﴿وتَسْبِيحَهُ﴾ إلى كلّ مُصلّ ومُسبِّح لتناسق الضمائر وعودها إلى شيء واحد فقال رحمه الله: «...في هذه الضمائرِ أقوالٌ، **أحدُها**: أنَّها كلَّها عائدةٌ على ﴿كل﴾ أي: كلٌّ قد عَلِمَ هو صلاةَ نفسِه وتسبيحَها. وهذا أولى لتوافُقِ الضمائر. **والثاني**: أنَّ الضميرَ في ﴿عَلم﴾ عائدٌ على اللهِ تعالى، وفي ﴿صَلَاتَهُ وتَسْبِيحَهُ﴾ عائدٌ على ﴿كلّ﴾. **الثالث**: بالعكس أي: عَلِمَ كلٌّ صلاةَ الله وتسبيحَه أي: أَمَرَ بهما، وبأن يُفْعَلا كإضافةِ الخَلْقِ إلى الخالق»[1]. بعد ذكر أقوال أهل العلم في عائد ضمير **"الهاء"** ﴿**صَلَاتَهُ**﴾ ﴿**وتَسْبِيحَهُ**﴾، يظهر لي -والله أعلم- أنّ ضمير **"الهاء"** تعود إلى ﴿كلّ﴾، وهو الذي رجّحه الطبري، لأنّ السياق يقتضيه كما في قوله تعالى: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾، فيكون المعنى: كلّ مصلّ ومسبّح قد علم اللهُ صلاته وتسبيحه.

الخاتمة:

من خلال عرض هذا البحث والوقوف على أهم المسائل المعروضة، وذكر ترجمة مختصرة للإمام الطبري، وإظهار القيمة العلمية لتفسيره "جامع البيان في تأويل القرآن"، ثم بيان الجانب التطبيقي من خلال الشواهد القرآنية، فقد ظهرت لي بعض النتائج وهي كالآتي:

1/ مكانة الإمام الطبري -رحمه الله- العلمية والمعرفية، فله إلمام كبير، واطلاعٌ واسع باللغة العربية، وهذا ما جعل تفسيره يتميّز عن غيره من التفاسير.

[52] تفسير الرازي، ج402/24.

2/ نجد أنّ الإمام الطبري جمع بين مصطلحين: الضمير والكناية في تفسيره وهو شيء واحد عنده، فالأوّل من مصطلحات نُحَاة البصريين، والثاني مِن مصطلحات الكوفيين.

3/ ترجيح الإمام الطبري بقاعدة عود الضمير إلى المذكور في السياق أولى من إعادته إلى مُقدَّرٍ.

4/ ترجيح الإمام الطبري بقاعدة عود الضمير إلى المفهوم من السيَّاق وإن لم يَجْر له ذِكرٌ في الآيات.

5/ نجد أنّ الإمام الطبري يذكر في الغالب أقوال العلماء في تحديد عائد الضمير، ثم يُرجِّح ما يراه صوابا.

6/ مِن أسباب اختلاف المفسِّرين، اختلافُهم في تحديد عود الضمير.

[iii] السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج8/419.

1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1995م.

2) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الاسلامية، الطبعة الأولى، 2002م.

3) أبو العباس شهاب الدين، المعروف بالسمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

4) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420هـ - 1999م.

5) أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.

6) أبو القاسم محمود الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ.

7) أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.

8) أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية.

9) أبو جعفر النحاس، إعراب القرآن، تعليق: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

10) أبو جعفر النحاس، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة، الطبعة الأولى، 1409هـ.
11) أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّآء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة الأولى.
12) أبو عبد الله محمد بن عمر، الملقب بفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ.
13) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
14) الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م.
15) جلال الدين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر.
16) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى.
17) خليل بن أحمد، العين، تحقيق: د .مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
18) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1985م.
19) ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.